١ ـ لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الأحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عصر الأحياء — إحياء العلوم — وشروق الأنوار على ظلمات العصور الوسطى ، وتفتح العبقريات العظيمة فى مختلف ضروب النبوغ الانسانى : فى العلوم والآداب والفنون ؛ وعصر المعارك والتطورات السياسية والاجتماعيـــة العظيمة ؛ وعصر اضمحلال الشرق ونهوض الغرب ؛ وذوى الحضارات الاسلامية الزاهرة ونشأة الحضارة الأوربية الحديثـة : ذلك هو عصر الأحياء الأوربى (الرينصانص) الذى ينبثق فجره فى إيطاليا منذ القرن الرابع عشر ، فى تلك الجمهوريات والدول الصغيرة الزاهرة ، التى تسطع تواريخها كاللآلئ فى حلك العصور الوسطى ؛ ثم لا يلبث حتى يغمر معظم أمم الشمال والغرب

ولـكنه أيضاً عصر الانقلابات السياسـية والاجتماعية العنيفة ، والشهوات المضطرمة ، والمؤامرات والدسائس المروعة ؛ وعصر المعارك الدينية والفورات المذهبية ، وطغيان الأحبار ، وعصف مجالس التحقيق[1] ؛ وإذا كان يبدو فى إيطاليا من بعض النواحى فى أسـطع وأبهى ألوانه ، فانه يبدو من بعض نواحيه الأخرى فى ألوان قاتمة ، فيما يجرف المجتمع الايطالى يومئذ من عوامل الفساد والانحلال ؛ وغمر اللهو والفجور والترف ، وتدهور معانى الفضيلة والحشمة والحياء ، واضطرام نزعة العدوان والاجرام والشر ، وعلى الاجمال فى تغلب الغرائز والشهوات المادية على المثل الروحية العليا

كان المجتمع الايطالى يومئذ ، كالمجتمع الرومانى فى عصوره الأخيرة ، يسطع بأشعة عظمته الأخيرة ، ويسطع فى نفس الوقت بحياة المجون العاصف ، والترف الناعم

* * *

فى أواخر القرن الخامس عشر تألق فى أفق ذلك المجتمع الايطالى الزاهر ، نجم أسرة جديدة طبعت تلك المرحلة من تاريخ رومة بطابعها الخالد ، وأسبغت مدى حين على المجتمع الرومانى آية من الفخامة والبهاء ، ونثرت عليه ألواناً من المرح الصاخب ، ولـكنها بسطت عليه فى نفس الوقت ريحاً من التوجس والخشوع والروع

تلك هى أسرة بورجيا التى اعتلى مؤسسها وعميدها رودريجو بورجيا عرش البابوية باسم اسكندر السادس ، وأنشأ ولده الطاغية الدموى تشيزارى (سيزار) بالسيف والنار مملكة رومانية قصيرة المدى ؛ وأثارت حياة ابنته الحسناء لوكريسيا ثبتاً حافلاً من التواريخ والأساطير الشائقة

لوكريسيا (أو لوكريس) بورجيا ! تلك الحسناء الفاتنة التى تحيطها الروايات المعاصرة أحياناً بألوان ساحرة من البهاء والفخامة ، وأحياناً بألوان مثيرة من الاثم والفحش ، وتصورها أحياناً ملـكاً كريماً يسمو عن ذلك المجتمع الرومانى الفياض بالدس والفجور والجريمة ، وأحياناً بغياً سحيقة تنحط إلى أسفل درك من الاثم والرذيلة ، هى نموذج لتلك الشخصيات النسوية الساحرة التى يثير جمالها وسحرها حولها نوعاً من الغموض والخفاء ، فلا يستطيع التاريخ أن يقول فيها كلمته بعيدة عن مؤثرات الرواية والخيال

على أن لهذه الشبيبة نفسها رمزاً آخر ، هو فيكتور هوجو نفسه . فقد نشأ مريضاً ، فقيراً ، مجهولاً ، مكروها من أخويه اللذين كانا يحسدانه لمواهبه ، بين أبوين منفصلين ، فـكان والده بعيداً لا يعنى بزوجته الأولى وبأبنائه ، فى حين أن الشخص الوحيد الذى يكبره ويحبه ، أى والدته ، أنـكرت عليه حقوق عواطفه وحالت دون اتصاله بالفتاة التى جعلت للحياة رونقاً ومعنىً عنده

وكان فيكتور هوجو باسلاً ، فاحتمل الألم بقوة أقوى من قوة الألم ، واستغل جميع المصائب والمصاعب والحوائل لانماء شخصيته واستحثاث مواهبه . فـكان سيداً فى زمن عصفت فيه الاطماع وكثر فيه السادة والنابهون

إن ما كتبه عن أمبير جعلوا موضوع تأمل لجميع القارئين . أما حياته وبسالته وانتصاره فمثال لجميع العاملين

« ى »

---

(١) تقصد بها المحاكم الـكنسية التى تعرف خطأ « بديوان التفتيش » (Inquistion)

كانت لوكريسيا ابنة للكردينال رودريجو بورجيا من خليلته الرومانية روزا فانوزا . وكان رودريجو ينتمي إلى أسرة اسبانية نزحت قبل ذلك إلى إيطاليا وسمت إلى بعض الوظائف الكنسية الرفيعة ، وتولى أحد أعضائها كرسي البابوية باسم اسكندر الثالث ، ورقى رودريجو ولد أخيه إلى مرتبة الكردينال . وكانت فانوزا كانتانى فتاة حسناء من أسرة طيبة ، وكانت زوجة لسيد يدعى دى كروشى ، يشغل وظيفة فى الديوان الرسولى ، فهام بها الكردينال رودريجو ، وأغضى كروشى عن تلك العلاقة الغرامية لما غمره به الكردينال من صنوف الرعاية والبذل . ورزق الكردينال من خليلته بأربعة أولاد هم : بيدرولويس الذى توفى حدثاً ، وجوفانى (جان) وشيزارى (سيزار) ولوكريسيا ، وجوفرى . وكانت فانوزا تقيم مع أولادها فى منزل يجاور قصر الكردينال ؛ ولم تكن علائقهما سراً ، بل كانت أمراً ذائعاً فى المجتمع الرومانى ، حتى أن فانوزا كانت تدعى فانوزا بورجيا

وعهد الكردينال رودريجو بتربية ابنته لوكريسيا إلى ابنة عمه ادريانا دى ميلا أورسينى ، وهى سيدة رفيعة المقام والخلال يثق بها أعظم ثقة ؛ فبعثت بالطفلة إلى دير القديس سكستوس فى وادى « الابنين » على مقربة من رومة ؛ وتلقت لوكريسيا هنالك تربية دينية عميقة ودرست الايطالية والاسبانية والفرنسية واللاتينية والرسم والموسيقى ، وتلقت بالجملة تربية تليق بأميرة عظيمة

وفى سنة ١٤٨٩ ، هجر الكردينال رودريجو خليلته فانوزا واستبدلها بفتاة رائعة الحسن تدعى چوليا فارنيسى ؛ ورأى حرصاً عليها أن يزوجها ، فزوجها بفتى يدعى أورسينوس وهو ابن لابن عمته ادريانا . وكانت لوكريسيا عندئذ فى التاسعة من عمرها — لأنها ولدت سنة ١٤٨٠ — وبعد عامين فقط رأى والدها أن يزوجها ، وعقدت خطبتها على فتى نبيل اسبانى يدعى الدون شيروبان ؛ ثم ألغيت هذه الخطبة بعد بضعة أشهر فقط ، وعقدت خطبة لوكريسيا على نبيل اسبانى آخر يدعى الدون جسبارو ، وذلك فى ابريل سنة ١٤٩٢ . وكانت لوكريسيا عندئذ فى الثانية عشرة ، وكان خطيبها فى الخامسة عشرة

ولم تمض سوى أشهر قلائل حتى وقع حادث عظيم فى حياة رودريجو بورجيا . ذلك أنه فى ليلة ١١ أغسطس سنة ١٤٩٢ ، انتخب لعرش البابوية ، وتولاه باسم اسكندر السادس ؛ وكان عندئذ فى الحادية والستين

وكان اسكندر السادس من أعظم الأحبار الذين تولوا كرسى القديس بطرس ؛ وكان رجلاً وافر الذكاء والعزم ، وافر الدهاء والجرأة ، قوى الشكيمة ، مقداماً لا يحجم عن وسيلة لتحقيق مشاريعه . وكان يعشق حياة المجون واللهو ويشغف بالمرح الخليع ، ويهيم رغم سنه بالنساء الحسان ، ويعيش فى بذخ طائل . وكانت مآدبه وحفلاته الشائقة من أعظم ظواهر الحياة الرومانية يومئذ ، ولكنه كان رغم بذخه ومجونه وخلاعته يقبض على مصاير الكنيسة والبابوية بيد من حديد ، ويوجهها طبق ارادته ، ويأخذ بقسط وافر فى مجرى الحوادث السياسية العظيمة التى كانت تجوزها الدول الايطالية يومئذ ؛ وكان يقرن مصاير الكنيسة بمصاير أسرته ، ويعمل لمجد أسرته وأولاده ، ما استطاع سبيلاً ، ويعد ابنه الأكبر شيزارى لمستقبل عظيم باهر ؛ وقد ترك لنا الكردينال دى قنربو زميل اسكندر السادس ومعاصره عنه وعن مجتمع عصره تلك الصورة القوية الآتية :

« كان اسكندر ذا ذكاء خارق ؛ وكان بارعاً ، حازماً ، نشطاً ثاقب النظر ، ولم يعمل أحد من قبل قط بمثل براعته ، ولم يقنع بمثل صرامته ؛ أو يقاوم بمثل ثباته . وكان يبدو عظيما فى كل شىء ، فى تفكيره وفى كلامه وفى عمله وعزمه ؛ ولو تفتحت المواهب التى يتمتع بها ، ولم تخنقها رذائله المديدة ، لكان أميراً وافر العظمة ، وكان يخيل لمن يشهده فى القول أو العمل أنه لم يكن ينقصه شىء ليقود العالم ؛ فقد كان دائماً على أهبة لأن يحرم نفسه متعة الراحة ، وكان يسرف فى ملذاته ، ولكنها لم تحل مطلقاً دون حمله عبء الشئون العامة . بيد أنا لا نستطيع رغم انصافه بهذه الخلال أن نقول إن عهده امتاز بيوم سعيد ؛ ظلمات وليل عميقة . ولنضرب صفحاً عن هذه المآسى المزلية المروعة ، ولكن الاضطراب فى الأراضى الكنسية لم يكن أشد وأخطر ، ولم يكن السطو أكثر ، والقتل والعيث فى الطرق العامة أروع ، ولم تكن طرق السفر أخطر ، ولم تشهد رومة من قبل قط أياماً أسوأ ساد فيها الشر والجريمة واللصوص ، ولم يكن ثمة حق ولا حرية . كان المال والقوة والفجور صاحبة السلطان والخول ؛ ولم تتحرر ايطاليا من النير الأجنبى إلا يوم

أنهار ذلك الطغيان البربرى »

* * *

كان اسكندر السادس أباً رحيما ، يحب أولاده حباً جماً ؛ وكان أول عمل عائلى قام به إثر ارتقائه عرش البابوية ، هو الغاء خطبة ابنته لوكريسيا لدون جسبارو ؛ ذلك أنه لم يبق بعد قرينا كفؤاً لابنة سيد الكنيسة وخليفة النصرانية ؛ وأرغم دون جسبارو على التنازل عن الخطبة نظير مبلغ من المال ، وطرحت مسألة زواج لوكريسيا على بساط البحث كرة أخرى . وهنا تدخلت العوامل السياسية التى أخذت تملى على اسكندر السادس خططه ومشاريعه فى تقرير مصير ابنته ؛ ذلك أن صديقه الكردينال اسكانيو سفورزا الذى كان أكبر عون له على ارتقاء عرش البابوية سعى لعقد التحالف بين البابا وبين أخيه لودفيكو سفورزا طاغية ميلان ضد آل أورسينى أقوى أمراء رومة الاقطاعيين ، وحماتهم آل أراجون ملوك نابولى ، ورأى توطيداً لهذا التحالف أن تزوج لوكريسيا من ابن أخيه جان سفورزا أمير بيزارو ؛ وأثمر سعى الكردينال ، وعقد الزواج فى رومة فى ابريل سنة ١٤٩٣ ؛ وكانت لوكريسيا يومئذ فى نحو الثالثة عشرة ، ولكن سجل فى عقد الزواج أنها بلغت السن المرغوبة ، وكان جان سفورزا فى السادسة والعشرين

واحتفل بزفاف لوكريسيا فى قصر الفاتيكان فى ١٢ يونيه احتفالاً فخما شهده أكابر الأحبار والأمراء والسفراء ؛ ومثل جان سفورزا على يد وكيله المختار طبقاً لرسوم العصر ؛ وفى المساء اقيمت حفلة شائقة فى قصر بلفيدير ، تحت اشراف جوليا فارنيسى خليلة البابا ونخبة من سيدات رومة ، وشهدها اسكندر السادس وأعضاء أسرته . ويصف البابا شاهد عيان لهذا الحفل فى قوله : « كان عظيم القامة ، مورد الوجه ، أسود العينين ، بفيض صحة ظافرة ، تمكنه من تحمل أعباء المنصب ، وشؤون الدولة ، وعصف الملاذ ، وكان دائماً متألقاً ظريفاً رقيقاً » . أما لوكريسيا بورجيا فقد كانت عندئذ فتاة صغيرة القد ، وافرة الحسن ، شقراء تسطع كالذهب ، خفيفة الروح والخلال ، دائمة المرح ، يزيد فى سحرها الطبيعى القاهر ، مسحة من الحياء ومحيا عذرى ، أو كما يصفه بعض الرواة المعاصرين محيا كاثوليكى ، هو مظهر تربيتها الدينية ، وحياتها فى الدير ، وتفيض نظراتها رقة ووقاراً »

وأفرد البابا لابنته قصر سان مارتينللو المجاور للفاتيكان ، وعين لها خليلته جوليا فارنيسى وصيفة شرف تقيم معها ، وكان قد فرق نهائياً بينها وبين زوجها ؛ وكانت كلتاهما آية ساطعة من الجمال والسحر ؛ واستمرت لوكريسيا مقيمة فى رومة حتى صيف سنة ١٤٩٤ ، وعندئذ حل برومة وباء الملاريا ، فبادرت لوكريسيا الى مغادرة رومة مع زوجها الى قصره فى مدينة بيزارو تصحبها فى هذه الرحلة والدتها فانوزا ، وجوليا فارنيسى ، وعمتها ادريانا أورسينى ، فوصل الركب الى بيزارو فى ٨ يوليه . وكانت بيزارو مدينة متواضعة ، ولكن بديعة الموقع تشرف على وديان نضرة على مقربة من الأدرياتيك ؛ وكانت إمارة متواضعة لاتقاس بأمارات فيرار ، وأربينو ، ومانتوا وغيرها من الأمارات الزاهرة فى ذلك العصر ؛ ولكن لوكريسيا كانت ذهناً رضياً متواضعاً ، فتذوقت حياتها الجديدة بسرعة ، وقضت فى بيزارو زهاء عام كامل

ثم استدعتها بواعث الأسرة والسياسة الى رومة ، فعادت اليها مع زوجها بمناسبة زواج أخيها الأصغر جوفرى من دوناسانسيا وهى ابنة غير شرعية لألفونسو الأرجونى ملك نابل (نابولى) ، وأقامت لوكريسيا مع زوجها الى جانب أبيها وإخوتها فى رومة ؛ وكان اسكندر السادس يحرص على أن يستبقى أولاده حوله فى المدينة الخالدة ؛ فكان ولده جان أو دوق جاندیا يقيم معه فى قصر الفاتيكان ، ويقيم شيزارى فى حصن سانت انجلو المجاور للفاتيكان ، وأخوه جوفرى على مقربة منه ؛ وتقيم لوكريسيا وزوجها فى قصر آخر مجاور للفاتيكان

وغدت لوكريسيا وزوجة أخيها سانسيا زينة الحفلات الرسمية والاجتماعية فى الفاتيكان ، وكانت سانسيا فتاة وافرة الحسن ، وافرة الجرأة ، عنيفة الشهوات ، يقال إنها كانت تصطفى العشاق من الأمراء والكرادلة . وأما لوكريسيا فكانت متحفظة ، ولكنها كانت ترغم بحكم الظروف على خوض هذه الحياة الباهرة المنحلة التى كانت تسود قصر الفاتيكان ؛ وكانت أداة مسيرة فى يد أبيها البابا وأخيها الطاغية شيزارى ؛ ولكنها كانت دائماً فياضة المرح فياضة البهجة ، وكانت روح هذه الحفلات الباذخة الصاخبة التى كان يمشقها البابا ، والتى كانت دائماً مثار الأقاويل والظنون

وكان يسود ذلك المجتمع الرومانى الرفيع يومئذ نوع من الفساد الشامل ، وتغلب فيه حياة الفجور والمرح ؛ وما قولك بمجتمع يقدم فيه سيده وزعيمه الروحى — البابا — أسوأ المثل الأخلاقية ، فيصطفى الخليلات جهاراً ، وينتزع الزوجات من أزواجهن ؛ ويقتنى فيه شيوخ الدين من كرادلة وأساقفة الخليلات جهاراً ، وتتنقل فيه الزوجات الشرعيات ، زوجات الكبراء والأمراء بين أحضان العشاق من مختلف الطبقات ، ويغمره ظلماً التهتك والخلاعة ، ويتغفل فى حفلاته وفى مرحه ومجونه كل مظاهر الحشمة والحياء ؟ هكذا يصف لنا بوركارت[1] مجتمع رومة فى عصر آل بورجيا . وقد كان بوركارت يومئذ مدير التشريفات البابوية ، وكان شاهد عيان لكثير من الحوادث والمظاهر والظروف التى امتاز بها العصر ؛ وقد ترك لنا من حوادث عصره ومجتمع عصره مذكرات نفيسة سنعود إليها من آن لآخر

كانت لوكريسيا بورجيا من آلهة هذا المجتمع ؛ وكان يثور حولها من الريب والظنون ما يثور عادة حول « إلهة » للجمال والحب . هل كانت هذه الفتاة الشقراء الفاتنة التى لم تجاوز السابعة عشرة من عمرها كما تصورها الرواية المعاصرة بغياً سافلة تتقلب بين أذرع عشاق لا حصر لهم ؛ بل تتقلب بين ذراعى أبيها ـ البابا ! ـ وبين أذرع إخوتها ؟ أم ظلمتها الرواية وبالغت فى اتهامها اعتماداً على ظواهر خادعة ؟ هذا ما سنحاول أن نناقشه فى البحث

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) فى كتابه أو مذكراته اللاتينية المسماة Diarium أو «اليوميات»

ظهر حديثاً كتاب :

فى أصول الأدب

صفحات من الأدب الحى والآراء الحديثة

بقلم

احمد حسن الزيات

يطلب من إدارة مجلة الرسالة ٣٢ شارع المبدول — القاهرة
وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً خلاف أجرة البريد

بين الفقه الاسلامى والرومانى

للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى

رئيس المجمع العلمى العربى

. . . . وقع نظرى على ما كتب أخيراً فى مجلة (الرسالة) بشأن علاقة الشرع الاسلامى بالشرع الرومانى ، وقد كان بعض الفضلاء من الشبان المسيحيين حملة الشهادات الحقوقية العالية — منذ بضع سنوات — كتب فى (مجلة قضائية) تصدر فى منطقة سورية محتمها السياسة (منطقة العلويين) وهى متصرفية اللاذقية — كتب فى هذا الموضوع كتابة خشنة تدل على أن القوم يريدون أن يجردوا الاسلام ونشأته من المزايا القدسية . وقد رددت عليه يومئذ بهذا المقال ، وسلكت فى الرد مسلكا ربما أعجب الباحثين لديكم ؟

المغربى

لقيني بعض الأصدقاء فى سوق الحميدية فجذبنى من يدى إلى مخزنه وقال : تعال انظر

وإذا هو يريني العدد ٢٢ من مجلة « الأبحاث القضائية فى دولة العلويين »

وإذا فى فاتحتها مقال للسيد ميشيل بولص حامل رتبة العالمية (الدكتوراه) فى الحقوق ، وإذا موضوع المقال « الوكالة الدورية » وإذا نتيجة الموضوع — كما لخصها كاتب المقال — ما نصه :

« إن الوكالة الدورية إنما هى طريقة رومانية . وشكل هذه الوكالة وأصولها وكيفية استعمالها هى هى عند العرب المسلمين كما كانت عند البيزنطيين . و « السُّنة » فى الاسلام ما هى إلا مجموعة القوانين الرومانية فى عصر الفتح العربى . وإن المبدأ السارى منذ الأجيال بين علماء الغرب والشرق بأن الشرع الاسلامى مستقل تمام الاستقلال عن بقية الشرائع اللاتينية ـ ليس إلا أسطورة لا أساس لها ! ! ! والأحاديث الاسلامية مختلقة اختلاقاً بدليل أن الامام الأعظم أبا حنيفة لم يعترف إلا بسبعة عشر حديثاً من أربعمائة ألف حديث » ـ اهـ

هذا ما صرح به الأستاذ ميشيل بولص فى بلادنا العربية